

صراع الهويات في السيرة الذاتية رغبة الاتصال والانفصال

د.أثير محمد شهاب
كلية الفنون الجميلة- جامعة بغداد

مدخل نظري:

لا نريد من العنوان الذي انطلقنا منه أن نمر بالسيرة الذاتية وتعريفاتها المعجمية التي تؤكد على أنها (تأريخ مدون لحياة شخص) (١) مهما اختلفت الأساليب، بقدر ما نسعى إلى تقديم رؤية مغايرة حفلت بها السيرة منتصف القرن التاسع عشر، هذه المغايرة شكلت سمة أسلوبية حددت هوية نظم البناء التي تقوم عليها. ويعبر مصطلح السيرة الذاتية عن تدوين سيرة شخص بطريقة تاريخية كانت أم فنية وأن (تكون شخصيات السيرة حقيقية، فأن ذلك لا يمنعها من أن تكون مادة لعمل فني) (٢)، مع الأخذ بالحسبان الملحقات الأخرى التي تضيف جمالية على أساليب السرد بما يلاحق المقصود بالسيرة من شخصيات ثانوية، أو أحداث سياسية أثرت بنحو أو بآخر في بناء الشخصية المركزية، ومع هذا التصور التقليدي لبناء السيرة، نجد أن ثمة خصوصية استطاعت السيرة العربية أن تقدمه في غضون تلك المدة، شكلتها أنظمة سياسية غير قادرة على إدارة الحكم، واستعمار جعل الإنسان العربي في ضياع مستمر بين تقاليد تشكل عليها، وعادات وتقاليد مستحدثة غير راغب في الاندماج فيها تارة ومستقبل تارة أخرى (٣).

هذه الإشكالية التي تسيطر على مجريات بناء السيرة؛ جعلتنا نُقبل على تحليلها ومعرفة القوانين التي تحكم علاقتها، ولعل أولى المفردات التي نرغب في تحليلها والنظر إليها بدقة، هي السيرة وعلاقتها بالذات، لا الذات التي يحرص الفلاسفة على البحث فيها وإيجاد أنماطها عن طريق مقولات -مقولة سقراط- اعرف نفسك بنفسك، أو علاقتها بالمجتمع ومدى فردانيتها، وإنما الذات المختلفة (المغايرة) التي تفقد وتبتعد عن الدين والأخلاق والنوع في محاولة للانصهار في مجتمعات أخرى غير مجتمعها عندما تسكن المنفى.

هوية السيرة الذاتية:

تؤكد الدراسات النقدية الحديثة المعنية بمتابعة السيرة الذاتية وقوانين علاقتها وأنظمة بنائها؛ أن السيرة المعنية بملاحقة شخص، ذاتية بامتياز (٤)، بمعنى أن مفردات البناء تنطلق من الذات لتعبر عن الذات، وهي إشارة إلى أن صيغة المتكلم هي المهيمنة في طرائق البناء، بخلاف السيرة التقليدية التي تُسمى بالغيرية (٥)، التي تنطلق من الآخر لتعبر عن الذات، مع وجود قلق في عدم تحقق الموضوعية في سرد سيرة الشخصية المراد الحديث عنها، لأسباب قد تكون أيديولوجية أو طائفية أو شخصية؛ لأن الموضوعية في كتابة السيرة عملة نادرة.

ولم يتم عن طريق هذا التبادل للضمائر بين (أنا المتكلم) × و(هو) الغائب في حركة بناء السيرة الذاتية والميثاق الذي يؤكد السارد الانتباه إلى أن هناك سيرة غير ذاتية بدأت تهيم على بناء السيرة، يمكن تسميتها

١- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة، كامل المهندس، مكتبة لبنان ناشرون، ط٢، ١٩٨٤: ٢٠٥.

٢- أوجه السيرة، إندرية مورو، ت. ناجي الحديثي، دار الشؤون الثقافية، العراق، ١٩٨٧: ٤٥.

٣- ينظر: أزمة الهويات، تفسير تحول، كلود دوبار، ت. رندة بعث، المكتبة الشرقية، بيروت، ط١، ٢٠٠٨: ٣٣١-٣٣٢.

٤- ينظر: أوجه السيرة: ٨٢.

٥- ينظر: أدب السيرة الذاتية، د. عبد العزيز شرف، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر، ط١، ١٩٩٢: ٣٠.

بسيرة الهوية، التي تشكلت نتيجة دفاع وصراع مستمرين مع الآخر الذي يرغب في سلب الذات وتهشيمها وتحقيق هوية أخرى بديلة، على النحو الذي (أصبح الاكتئاب أكثر الأمثلة شيوعاً على أزمات الهوية الشخصية) (١) بسبب الفارق بين الهويات الذي يخلق أزمة مدروسة، ف(رفاه كل فرد من أفراد المجتمع الإنساني، وفي الأحيان أغلبها، بقاؤه وحياته تعتمد اعتماداً كبيراً على سلوك الأفراد الآخرين في ذلك المجتمع) (٢).

سيرة الهوية:

قبل الدخول في تفاصيل هذا اللون من السيرة، لا بد من الانتباه إلى أن تعريف سيرة الهوية سوف يتجه نحو الاتفاق مع مفهوم الأزمة الذي يعرف ب(مرحلة صعبة تمرّ بها مجموعة اجتماعية أو يمرّ بها فرد) (٣)، بمعنى اقتران مفهوم الهوية والأزمة بنحو لا يقبل الانفصال؛ لأن الهوية علامة تفرق بين هويات أخرى تختلف في مجموعة من الخصائص، وقد تكون الأزمة أيديولوجية مكانية، أو تاريخية لها علاقة بالدين، بحيث يأخذ التاريخ وضعاً مميزاً بطريقة ما داخل بنية السيرة، ولكن من الجانب الإبداعي كما يقول لوكاش، لا يمكن الوثوق بالتاريخ لتحقيق أهداف إبداعية أو تأثير فني (٤)؛ لأن التاريخ قد لا يظهر الجانب الإنساني بقدر الاهتمام بالمعلومات الواردة.

والهوية التي نرغب في الحديث عنها، هي بضم الهاء وكسر الواو (هُوية) وليست (هوية)، لاختلاف الدلالة بينهما في المعاجم العربية بين الإشارة إلى الشخص، وبين البئر البعيدة القعر (٥)، والبحث في الهوية يجعل العلاقة قريبة من مفهوم الانتماء؛ لأنهما متلازمان في الوظيفة، فالانتماء يحدد ويؤثر في إسهام الفرد في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للبلاد التي يسكنها (٦).

وتشكّل هذا المصطلح (سيرة هوية) لدينا من قراءة عدد لا بأس به من كتب السيرة، سواء كانت في بداية القرن التاسع عشر، (الأيام) لطفه حسين، و(رحلة صعبة) لفدوى طوقان، أم في منتصفه كمحمود درويش في (يوميات الحزن العادي)، ودرنا قباني في سيرتها (رسالة إلى الغرب) (*)، وإدوارد سعيد في (خارج المكان)، وعبلة الرويني في كتابها (الجنوبي)، و(الاعتراف الأخير لمالك بن الريب) ليوسف الصائغ، وسعدي يوسف في (خطوات الكنغر)، والجواهري في (ذكرياتي)، هذه السير كلها شكلت تنوعاً في البناء وخصوصية في الأداء، ولكن ما جعلنا نقبل على إيجاد خصائص مشتركة بين مجموعة من كتب السيرة خارج الثوابت المتعارف عليها في بناء (السيرة الذاتية)، هو طرد (الذاتية) عن بعض هذه السير، وهنا يتحقق مفهوم آخر مجرد (سيرة) يحتاج إلى عنوان آخر يثبت له امتياز وخصوصية أمام ما قدم في التراث العربي من كتب سيرة ورحلات ومغازٍ، ولعل الممهدات الأولى لإيجاد بديل، هو وجود هويات مسلوقة في سيرة

١- أزمة الهويات: ٢٨٩.

٢- بنو الإنسان، بيتر فارب، ت.زهير الكرمي، عالم المعرفة (٦٧) الكويت، ١٩٨٣: ٢٨٤.

٣- أزمة الهويات: ٢٨-٢٩.

٤- ينظر: الرواية التاريخية، لوكاش، ت.صالح جواد كاظم، منشورات وزارة الثقافة والفنون، جمهورية العراق، سلسلة الكتب

المترجمة (٤٩)، ١٩٧٨: ٤٥٢.

٥- ينظر: لسان العرب، ابن منظور، مادة (هوى)، والمحيط، مجموعة من الأساتذة، تقديم الأستاذ الدكتور محيي الدين

صابر، القاهرة - آذار، ١٩٩٣.

٦- صراع الرؤى، نزاع الهويات في السودان، فرانسيس دينق، ت.عوض حسن، مركز الدراسات الاستراتيجية، القاهرة، ط١،

١٩٩٩: ٩.

(*)- الدكتورة رنا قباني من أوائل الذين تحدثوا بعلمية ورصانة عن مفهوم الاستشراق في كتابها، أساطير أوروبا عن الشرق، لفق تسد، منشورات دار طلاس، دمشق، ت.صباح قباني.

محمود درويش، ود.رنا قباني، وإدوارد سعيد، سنحاول أن نبين هذه الخصوصية عن طريق ضبط المصطلح، وتوفير قاعدة قوية لإقناع القارئ بما تقدمه من رؤية تستمد مشروعيتها من الخصائص البنائية التي وفرتها هذه السير.

وتمتاز سيرة الهوية بأنها تنطلق من الذات، لكنها لا تهتم بالذات مثل بقية أنواع السير التي يكون مركز اهتمامها الذات، بمعنى تنطلق هذه السيرة من أنا/ المتكلم/ المبدع إلى ذات أخرى هي المحور الأساس للحديث، بمعنى تنطلق من الذات ولا تعود إليه بخلاف السيرة الذاتية التي تنطلق من الذات وتعود إليه؛ لأن السيرة الذاتية تفترض وجود تطابق (بين الكاتب من ناحية والراوي والشخصية الأساس من الناحية الأخرى، أي إن ضمير المتكلم يعود إلى الكاتب ولا يوجد أي شيء في النص يثبت ذلك) (١).

إن قدرة السيرة على البوح حول الإشكاليات التي تعرضت لها الشخصية الإبداعية وما رافقها من أمور ترسم خارطة قرائية مميزة تجعل القارئ راغباً في التعرف إليها؛ لأن ثمة فناً ومبدعاً وسياسياً له خصوصيته في سيرته ستشكل لحظة متعة وكشف وبيان يفتقدها القارئ.

وقد يكون الإصرار من وراء الدفاع المبرمج عن الذات الأخرى التي هي محور أساس للذات الساردة (فلسطين، والإسلام، والأرض)، الرغبة في التمجيد (الذات الكبرى)؛ لأن (تمجيد الذات أمر جائز جداً وسليم) (٢) على خلاف كتاب السيرة الذين لا تغريهم موضوعات كبرى بقدر انشغالهم في ذواتهم، وربما انشغال بعضهم في التعبير عن فقير هو إحساس بالذات الكلية التي تشكل هويته، لذلك نجد بعض كتاب السيرة من يسعى إلى (إضفاء قيمة على حياة الفقير تساوي في عظمتها ما يضيفه على حياة شكسبير) (٣)، والأمر الذي ينطلق منه يشكل نمطاً يعنى بدراسة حياة مجتمع عن طريق ذات فرد (٤).

وسيرة الهوية تنطلق من الذات المبدعة (وهنا يمكن أن تقترب من السيرة الذاتية)، ولكنها لا تعود إليه، بسبب وجود قضية أكبر أجبرت أنا/ المتكلم المبدع في سيرته سرد سيرة ذات أكبر تمثله وتنتمي إليه، وهي حلم ذوات أخرى، تقترب منه في الروح واللون والجنس والهوية، وهذا النشاط في سرد سيرة ذات كلية يعتمد على (سلسلة من الخيارات، بمعنى الاختيار الذي تقوم به الذاكرة، والاختيار الذي يقوم به الكاتب بين الذكريات التي تقدمها له ذاكرته) (٥)، وأعتقد أن هذا الشكل من السيرة هو صراع سري بين انتماءين، ذاتي/ طارئ وجمعي، بين أنا و (نحن) على اختلاف ما قدمه نوربرت إلياس في قوله (ليست هنالك هوية للأنا من دون هوية للنحن) (٦)، بمعنى اقتراح سلوكيات جمعية يشترك فيها الجميع، ويلغي فكرة تفرد الذاتية.

السيرة التي أطلقنا عليها (سيرة هوية)، تهتم بهدف أكبر يمثل إشكالية جنس بكامله عن طريق مادة اللغة، التي ستتحول إلى علامة للتعبير عن تلك الذات الكلية التي يحرص كتاب السيرة الدفاع عنها، لذلك صار الدفاع عن الذات الكبرى لغوياً عن طريق تحويل اللغة إلى علامة، يقول السيميائيون: (إن البشر يودعون في اللغة نظرتهم للعالم) (٧)، وهذا التصور يقودنا إلى أن طبيعة الدفاع عن الذات الكبرى لم يكن عضلياً أو عسكرياً، وإنما دفاع ثقافي من نوع آخر، وهنا نضع أنفسنا بإزاء تصور سيرتي تقوده الأهداف والإشكاليات والموضوعات على خلاف قوانين السيرة الذاتية التي تحركها الضمائر من أجل الذهاب والعودة إلى ذات واحدة من أجل الكشف عنها.

١- أدب السيرة الذاتية في فرنسا، المفاهيم والتصورات، فيليب لوجون، ت.ضحى شيخة، م.الثقافة الأجنبية، العراق، ع(٤)، ١٩٨٤: ٢٩.

٢- أشكال الزمان والمكان في الرواية، باختين، ت.يوسف حلاق، منشورات وزارة الثقافة السورية، ١٩٩٠: ٧٠.

٣- أوجه السيرة، إندريه موروا: ٤٨.

٤- ينظر: طبيعة السيرة، م.الثقافة الأجنبية، ع(٤)، ١٩٨٤: ٢٢٦.

٥- أدب السيرة الذاتية في فرنسا: ٢٨.

٦- أزمة الهويات: ٤١.

٧- مدخل إلى السيموطيقا، مقالات مترجمة ودراسات، بإشراف سيزا قاسم، ونصر حامد أبو زيد، دار إلياس العصرية، القاهرة: ٣٩.

إذا الانطلاق من الذات إلى ذات أخرى، القاعدة الأولى لسيرة الهوية، ويبقى لدينا إشكال واحد نحن مطالبون بحله، متمثل في اسم (الهوية).

والهوية التي نقصدها، هي الامتياز الخاص الذي يجعل الإنسان إنساناً له سماته وخصوصيته، متى ما فقدناها يبدأ الصراع الداخلي، وتبدأ علامات عدم الثبات تهيمن على سلوكه، فما (يعد في مجتمع ما إثماً يعد فضيلة في مجمع آخر) (١)، وهذا يدل على أن الهوية بما تحمله من طقوس وعادات وتقاليد وقيم، امتياز (سيمبائي) يدل على نمط اجتماعي وسلوكي ونفسي، إذا ما فقد يسبب خللاً للذات (إن حياتنا بأسرها محصورة داخل شبكات من العلامات تشكلنا إلى الدرجة التي تجعلنا إلغاء علامة يخل بتوازن المجتمع والفرد معا) (٢)، وتأتي هذه العلامة السيمبائية (الهوية) من الاستقرار في المكان (الأوطان)، وتوافر مناخ الحرية في ذلك المكان، والعيش بكرامة، والتعايش السلمي، وحرية الرأي والرأي الآخر، أي اضطراب لهذه المقولات سوف تجهز الأرضية الكاملة لأزمة هوية تقضي إلى الخروج من المكان قسراً تارة وإكراهاً تارة أخرى، وهذا -بالنتيجة- يجعل الإنسان يغادر إلى أرض أخرى لا تمثل هويته (لغته، وعاداته، وتقاليد، وسلوكياته، وقناعاته)، بحيث يعيش ذلك الإنسان بين مناخين/ فضاءين، مناخ هوية وطن طارد، ومناخ وطن مستقبل جديد، يشعر بعدم الاستقرار فيه، وبين هذين الوطنين يتكوّن الإنسان على قلق وخوف وضياح، وإذا ما كان المكان نفسه مهدداً بعد سيرة الكولونيالية فيسكون الإكراه الجمعي لمغادرة المكان قسراً أكثر قوة ودلالة على ضياع الهوية بالإكراه، لذلك وجدنا الأعمال ما بعد الاستعمار تقدم (وبوعي ذاتي كامل منها تواريخها، هويتها الخاصة، وذلك من خلال لعب معقد لا يمكن أن يكتمل أو ينتهي) (٣)، قادنا هذا الأمر إلى خلق تعددية في الانتماءات بين أمكنة مختلفة، لذلك يمثل (الانتماء المتعدد والمتبدل للأفراد في المجتمعات الحديثة مشكلة اجتماعية مربعة) (٤)، وإن كانت نوايا الآخر تشكك في طبيعة الصراع المضمّر بين الشرق والغرب عن طريق مقولات نهاية التاريخ وما شابه، بالاعتراف بأن الحوار ما بين الشرق والغرب هو (الحوار بين الذاتيات المتفاعلة في العالم وليس هو قانون الصراع) (٥).

هناك أجيال جديدة تشكلت في مكان آخر له هويته الخاصة، نتيجة الرهبة/ الرغبة في العيش في مكان آخر، مع ذلك ثمة صراع هوية تمثل في الرغبة في الإبقاء على العادات والتقاليد القديمة، والانسجام مع هوية البلدان الأخرى مع وجود القناعة المشتركة عند الجميع بأن عنصر التمييز سوف يأخذ سيطرته بسبب المتغيرات في الشكل واللون والعرف والطائفة التي يميزها الآخر الذي نعيش على أرضه، ففي المدرسة هناك أطفال كثر (في البلدان الأوروبية) لديهم شعر أشقر، في حين العربي يحمل الشعر الأسود، وهذه الدلالة اللونية تمثل مأزق هوية بين عادات وتقاليد مختلفة بينها، ويقود هذا بالنتيجة إلى النظر في مسألة الهويات الفرعية التي تشكل امتياز بعض الجماعات التي تسعى إلى المحافظة على خصوصيتها، فثمة (أساليب لمماثلة الأشخاص مع بعضهم ومماثلة كل منهم لنفسه بنفسه) (٦)، كحل من أجل الابتعاد عن خلق التطرف والعنصرية بين الجماعات الموجودة في مكان معين، وقد عرفت أزمة الهوية (بوصفها اضطرابات في علاقات مستقرة نسبياً بين عناصر تهيكّل النشاط (الإنتاج والاستهلاك، والاستثمار والنتائج) والنشاط المقصود هنا هو المماثلة، أي تصنيف الآخرين والذات) (٧).

١- بنو الإنسان، بيتر فارب، ت. زهير الكرمي، عالم المعرفة (٦٧)، ١٩٨٣: ٢٥٥.

٢- مدخل إلى السيمبوتيقا: ١٧٨.

٣- الدراما ما بعد الكولونيالية، النظرية والممارسة، هيلين جيلبرت، وجوان تومكينز، ت. سامح فكري، مر. سامي خشبة، مركز اللغات والترجمة - أكاديمية الفنون، وزارة الثقافة، مهرجان القاهرة الدولي للمسرح التجريبي (١٥)، مطابع المجلس الأعلى للآثار، ١٩٩٨: ٣٥.

٤- John Elster the multipleself، نقلاً عن أزمة الهويات: ٢٦.

٥- الهوية الثقافية بين العالمية والعولمة، د. عفيف البهنسي، وزارة الثقافة السورية، الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٠٩: ٢٠٠٩.

٦- أزمة الهويات: ٣١.

٧- م. ن: ٢٩.

المنطلقان سوف يساعدان على إعادة قراءة سيرة محمود درويش (يوميات الحزن العادي)، وكتاب (رسالة إلى الغرب) لـ(د.رنا قباني)، و(خارج المكان) لإدوارد سعيد (*) من أجل بيان خصوصية السيرة التي أطلقنا عليها (سيرة الهوية) ووجود المشتركات بين هذه الأنماط، التي تمثل لحظة للإقرار الضمني بخصوصية هذا النمط السيري.

عنوانات تغادر ذات المبدع:

قبل الدخول في متن سيرة الهوية، يغرينا البحث في عتبة العنوان الذي انطلقت منه السيرة (الهوية)، ولست هنا بصدد البحث في أهمية العنوان وما يمثله في الدراسات النقدية، نظرًا لما قدم من دراسات (١)، بحيث إن أية دراسة ستكون إعادة لما قيل في هذا المضمّن، وإنما مطالب بالكشف عن هوية الأنماط السيرية الجديدة التي تجعلنا نقبل على دراسة كل خصوصية تؤكد صدق ما نصبو إليه.

تتطلق العنوانات (خارج المكان، ورسالة إلى الغرب، ويوميات الحزن العادي) من تأكيد فعل المغادرة من الذات إلى أمر آخر يمثل أزمة هوية، فقول إدوارد سعيد (خارج المكان) علامة على أزمة الذات خارج المكان الذي يمثل هويته، وقوله (خارج) تمثيل للانطلاق من الداخل الهوية إلى الخارج/ اللا واقع، في حين قدمت د.رنا قباني (رسالة إلى الغرب) رسالة جديدة في طبيعة صراع الأضداد بالنسبة إلى الإنسان المسلم الذي يعيش في الغرب، ويأخذ الإصرار دوره في مغادرة الذات للبحث في ذات المسلم الموزع بين هويتين مع وجود كلمة (رسالة) بوصفها إشارة إلى رسالة نصحية لمن يرغب في مغادرة هويته، في حين قدم الشاعر محمود درويش رؤية مغايرة في عنوانه (يوميات الحزن العادي) تتلخص في رؤية ذات لما يجري لمكان تم السيطرة عليه وطرده الآخر (الهوية) من مكانه قسرًا.

وعلى مستوى العنوانات الداخلية، نجد الحذر مهيمًا عليها، بدلالة الخوف من الهوية الممزقة (إرث الافتراء، وأقوال وأفعال، وخيانة الكتاب) (٢)، (الوطن بين الذاكرة والحقيقة، وصمت من أجل غزة، وعازف الكمان على الجمجمة) (٣)، في حين بقيت سيرة إدوارد سعيد ضمن الإطار التقليدي للفصول (فصل أول، وثاني، وثالث) من دون أن يكون هناك تسلسل منطقي للبناء مثل الرواية، فقد سيطرت الطفولة على أكثر من فصل، بسبب أن الطفولة والصراع الداخلي، هي لحظة حقيقية لأزمة الهوية.

سيرة الهوية والمكان:

تقترن سيرة الهوية بالمكان اقتراءً كبيرًا؛ لأنه يمنح توازنًا مثلما يمنحه البيت، فنحن نعيد تخيل حقيقة المكان باستمرار (٤)، على النحو الذي يمثل فيه المكان بؤرة الاهتمام المركزي؛ لأن علاقة الهوية تأتي أولاً وأخيرًا من سلطة قرار المكان، وسيرة محمود درويش التي تقوم على لحظة للانتقال من سيرة الذات إلى سيرة المكان تأتي لتحمل إشكاليات هوية الانتماء للمكان، ولعل لحظة الإقرار الحقيقية تأتي عندما يقوم المغتصبون

* - جاء في عنوان كتاب إدوارد سعيد خارج المكان، إشارة إلى كلمة مذكرات، ولم أجد ما يدعو إلى قبولها؛ لأن المذكرات لها علاقة بالشخصيات التي شهدت تحولاً له أهميته ضمن السياق التاريخي للمجتمع، بحيث تخدم هذه المذكرات المرحلة التاريخية وتفسر الكثير من الأحداث، فالمذكرات على حد قول النقاد (شهادة حول حقيقة زمنية) الأدب والأنواع الأدبية، مجموعة من الأساتذة، ت. طاهر حجار، دار طلاس، ١، ١٩٨٥: ٢٣٣، وسيرة إدوارد غير مغنية بالشهادة بدرجة كبرى بقدر سرد سيرة ذاتية تمثل من وجهة نظرنا سيرة هوية.

١ - ينظر: السيموطيقا والعنونة، جميل حمداوي، م. عالم الفكر، مج (٢٥)، ع (٣)، الكويت، ١٩٩٧: ١٠٥-١٠٦، وينظر: العنوان وسيموطيقا الاتصال الأدبي، محمد فكري الجزار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨: ٦٩.

٢ - رسالة إلى الغرب، د.رنا قباني، ت. د. صباح قباني، دار الآداب، ١، ١٩٩١: ١٦، ٦٦، ١١٤.

٣ - يوميات الحزن العادي، محمود درويش، دار العودة، بيروت، ط ٢، ١٩٧٨: ٤٩، ١٦١، ١٩٧.

٤ - جماليات المكان، باشلار، ت. غالب هلسا، كتاب الأقلام (١)، وزارة الثقافة والإعلام، دار الحرية للطباعة، ١٩٨٠: ٥٤.

الصهاينة بطرد الإنسان الفلسطيني من أرضه وإحلال هوية أخرى من جنسيات أخرى يجمعها الحلم الصهيوني، وقدرة درويش على صوغ السيرة تنافي ما قد يذهب إليه بعضهم (١) من سرد سيرة لسنا بنا حاجة إليها، إذ إنها تدل على سيرة وطن بكامله، فعندما يتم طرد الجد من أرضه، يسعى الجد إلى استعادة مؤقتة للهوية، عندما يقوم باستئجار أرضه من التاجر اليهودي (ولم يتوقف جدّي من ممارسة الأمل، فانتقل إلى قرية أخرى قريبة من أرضه، وذات صيف احتال على القانون، فاستأجر من تاجر يهودي موسم البطيخ المزروع في أرضه، وهكذا أتيحت الفرصة لصاحب الأرض أن يشتري ما تنتجه أرضه، وكان جدّي قليل الدراية بالتجارة، فخرس الصفقة ولكنه ربح فرصة التمدد ساعات طويلة في حقله القديم) (٢).

الجملة التي سيطرت على سيرة الهوية، الإصرار على انتزاع الهوية المسلوبة التي أخذها الآخر بالقوة، ففي الحالات الطبيعية لا نجد من يمتلك تمثيلاً حقيقياً، كيف إذا كان التمثيل مستلباً، إذ (لا يستطيع المرء أبداً التأكد من أنه ممثل تمثيلاً جيداً) (٣)، وتبدأ سيرة الهوية من زرع النص بمفرده (الأمل) التي تعني ملازمة الهوية القديمة المسلوبة عن طريق افتراض الحلم والأمل في العودة إلى المكان القديم الذي يمثل شكله وهويته، لذلك يؤكد باشلار (عندما تسكن بيتاً جديداً تتوارد إلينا ذكريات البيوت التي عشنا فيها من قبل، فإننا ننتقل إلى أرض الطفولة) (٤)، بمعنى تحول المكان/ الهوية إلى حلم طفولي يراود ذات المبدع في التعبير عن الذات الأخرى، وهي مقولة تقترب من مقولات حاجة (الهوية الشخصية باستمرار إلى أن تفسر وتؤكد رموزها وتحكي) (٥)، في حين تقدم الجملة الثانية خطة شروع أخرى في الاقتراب من الهوية/ المكان الضائعة (انتقل إلى قرية أخرى قريبة من أرضه)، وهذا الاقتراب هو انتقال ذات من الافتراض الحلمي (الأمل) إلى الفلسفي المادي، وهي محاولة ذكية من المبدع في توزيع صورة الهوية والأزمة التي تعيشها في الانتقال من الحلم إلى الحقيقة من الجانب المعنوي إلى مادي الذات، بمعنى أن اقتراب الذات من المكان/ الهوية المسلوبة، هو اقتراب نسبي من الهوية الضائعة.

واقتراب الذات أكثر في الجملة التي بعدها، حينما يقوم الجد باستئجار الأرض المسلوبة/ استئجار الهوية المسلوبة، وهو انتقال مبرر لإقناع الهوية المسلوبة، ولكنه خروج على منطقية قانون الآخر الذي سلب الهوية (استأجر من تاجر يهودي موسم البطيخ المزروع في أرضه)، وإشارة الذات الساردة إلى (أتيحت له الفرصة لصاحب الأرض أن يشتري ما تنتجه أرضه) محاولة ضمنية من الجد لتقديم أي تنازل من أجل العودة الوقتية لحلم الهوية المسلوبة- المكان.

ويسعى السارد في الجمل المتقدمة إلى أن يمدنا بنتائج الاندماج الوقتي بالهوية المسلوبة عن طريق ثنائية (الربح والخسارة) التي لا تمثل أهمية/ لمسلوب الهوية، بقدر تحقق الاندماج عندما قال (فخر الصفقة ولكنه ربح فرصة للتمدد ساعات طويلة في حقله القديم).

حاول السارد في هذه الجملة المرور بثلاث مراحل تمثل لحظة الصراع الحقيقي مع المكان المسلوب الذي يمثل هويته (هوية جده)، وهي محاولة من أجل تقليل الفارق بين مسافة الهوية والذات التي يتحدث عنها السارد التي كانت في أول الأمر صعبة؛ لأنها اقترنت بالأمل، في حين في المرحلة الثانية تقلصت بسبب الاقتراب المكاني حينما استأجر أرضاً قريبة من أرضه، وفي المرحلة الثالثة تحقق فعل الاندماج الوقتي حينما استأجر من التاجر اليهودي موسم البطيخ المزروع في أرضه.

١- أزمة الهويات: ٣٦١.

٢- يوميات الحزن العادي: ٤٤.

٣- أزمة الهويات: ٢٧٨.

٤- جماليات المكان: ٤٣.

٥- أزمة الهويات: ٣٦٦.

يبقى الصراع الداخلي عند كلِّ إنسان بين الخير والشر، الديني واللا ديني واقعاً مهماً لتكوين وعي الذات بين الاندماج مع الجماعة، أو الابتعاد عنها، والاندماج والابتعاد، قد يكونان سلبيين أو إيجابيين، فعندما يكون المجتمع رافضاً للقيم الدينية، والمبادئ السماوية التي تخص دينه يتخذ الصراع نمطاً ذاتياً في البحث عن هوية دينية تبعده عن سلوكيات الرفض، إذ (أصبح اتباع دروب الخلاص بالنسبة إلى عدد متزايد من المسيحيين قضية شخصية) ^(١)، ولا يعني أن الانقطاع في شكل الاختلاف الثقافي بين نمطين هو القطيعة (فالاختلاف في الثقافات نتيجة حتمية، من دون أن يعني هذا التباين فقدان اللغة الإنسانية المشتركة التي تحقق الحوار) ^(٢)، وهذا لا يمنع وجود المجتمعات التي تهيمن عليها القيم الدينية، إذ تجد ثمة أشخاصاً يحاولون الخروج عليها بسبب تحول الديني إلى قيم اجتماعية ضاغطة تولد التمرد على تلك القيم وإيجاد مبررات التمرد، وشكل الفرد بين التمرد والاندماج يمثل خصوصية في البحث عن ذات مستقلة سواء كانت بمعناها الإيجابي أم السلبي، فما بين هذه المتناقضات، وإلحاح المرء على أن يكون نفسه وذاته تمثل ما يعرف بـ(المرض الهوياتي المزمّن أحياناً) ^(٣)، بحيث يفضي هذا التصور إلى أن الحيادية في كتابة السيرة الذاتية من الصعب تحقيقها، لذلك وجدنا النقاد يقولون: (من العبث أن نتصور كاتب السيرة الحديثة كأنها محايداً بصورة كاملة) ^(٤).

ويأخذ كتاب (رسالة إلى الغرب) للدكتورة رنا قباني، صورة أكبر في بيان قيمة الصراع وسيرة الهوية لإنسانة مسلمة تعيش في الغرب، والانطلاقة التي تبرر لنا قانونية كتابة سيرة هوية في كتاب دبرنا قباني، تأتي من بيانها لمنطق الدافعية والأهداف التي جعلتها تُقْبَل على تأليف هذا الكتاب، وهي لا تختلف عن فاطمة المرينسي في كتابها (شهرزاد ترحل إلى الغرب) حينما تحول كتابها إلى رؤية موازنة بين الشرق والغرب، واختلاف الفهم، وكأن عقدة الموازنة محاولة لإثبات هوية مغايرة في تكوين وعي الشرقي، وعلى سبيل المثال توازن بين فهم مفردة الحريم عند الغربي وفهمها عند الشرقي، بقولها (للرجال الغربيين حريمهم ولي حريمي، والاثنتان معا لا يشتركان في شيء، يبدو أن حريم الغربيين مرتع للهو) ^(٥)، بخلاف فهم حريم الشرق، إذ تقول (وبعد عشر سنوات من التأرجح أراني أجد أنه لا بد من تحقيق توازن في ما بين تجربتي: الإسلامية والغربية، إن حاجتي للتواصل إلى مثل هذا التوفيق بين التجربتين الدافع الأول لإنشاء هذا الكتاب) ^(٦)، فعشر سنوات من الصراع بين ذاتين/ هويتين مكانين، إسلامية/ غربية، الدافع الأول لإنشاء هذا الكتاب، وقد تمثل الصراع بقولها (من التأرجح)، وما يدفعنا إلى النظر إلى مثل هذه السيرة الهوية محاولتها البقاء في المكان غير الهوية لايجاد معادل موضوعي للاستقرار في المكان الآخر عن طريق تأكيد مفردة (التوفيق)، بل تزيد (بين تجربتين)، على النحو الذي يدعونا إلى الاهتمام بهويتين جديدتين: إحداهما: إسلامية، والأخرى: غربية، وكأن هناك ذاتين تقتربان من فعل التمزق) ^(٧).

والدافعية التي قدمتها في تحقيق فعل التوازن والتوفيق بين تجربتين، هي نتيجة منطقية لصراع طويل بين هويتين (ولقد تصارعت طويلاً مع هذه المشكلة، فكنت أدوب مرة وأمارس المجابهة مرة أخرى، ولكنني لم

^١ - أزمة الهويات: ٦٩.

^٢ - الهوية الثقافية بين العالمية والعولمة، د. عفيف بهنسي: ٤.

^٣ - أزمة الهويات: ٢٨٩.

^٤ - أوجه السيرة: ٢٢.

^٥ - شهرزاد ترحل إلى الغرب، فاطمة المرينسي، ت. فاطمة الزهراء، المركز الثقافي العربي، ط ٢، ٢٠٠٥: ٢٥.

^٦ - رسالة إلى الغرب: ٣٥.

^٧ - أزمة الهويات: ٣٢٨.

أستسغ أياً من الحالتين، فالذوبان أشعرنني أنني أخون تراثي، وأما المجابهة فقد صيرتني متعصبة متطرفة ينتابني الإعياء والمرارة (١).

إن جملة (أخون تراثي)، و(المجابهة) مثلت سيرة ذات موزعة بين اتجاهين، اتجاه يتمسك بكل التقاليد التي جاءت من المكان الأول لهزيمة الذات، إلى مكان آخر له هوية أخرى في السلوك والعادات والتقاليد واللغة واللون والدين، وبين هذين الاتجاهين، الاحتفاظ بالتراث والمجابهة تتأزم الذات ولا تحاول أن تكون طبيعية إلا بوساطة المنطق الذي افترضته درنا قباني في إيجاد معادل اندماجي قائم على أساس (التوفيق بين تجربتين)، من ذلك وجدنا العلماء يقسمون الذات في ضوء المماثلات على قسمين، المماثلات التي يمنحها الآخر، والمماثلات التي يتبناها المرء نفسه (٢).

ولكي تنوع درنا قباني سيرتها وطريقة سردها لبنية النص، تسعى في فصل آخر من سيرتها إلى تقديم إشكالية أخرى، ربما تعد من الإشكاليات الحديثة في الدول الأوروبية، وهي (الحجاب والمرأة)، فقد سيطر هذا الموضوع على بيئة الإعلام الغربي وجعلوه الإشارة الأولى للإسلام وربطوه بقمع الحريات، وأنتجوا الكثير من الأفلام التي تعد نساء الحجاب شكلاً واحداً وغير مغاير، بمعنى اندماج الجماعة في ذات واحدة، وهي تحرص على إيجاد المعلومات التاريخية وإدخالها ضمن بنية سيرتها لكي ترفض المنطق الغربي في النظر إلى الحجاب، لذلك وجدناها تبحث في أصول الحجاب ومرجعياته الذي يعود إلى الأصول المسيحية، لكي تدحض المقولات التي تربطه بالإسلام (ففي الولايات المتحدة وأوروبا يسود الاعتقاد بأن غطاء الوجه هو رمز الإسلام بعينه، ولهذا أصبح علينا أن نذكر بأن هذا الغطاء هو ذو أصل مسيحي ولم يأخذ به العرب إلا حين فتحوا سوريا في القرن السابع) (٣).

وهي -من جانب آخر- تؤكد اختلاف تصورات المرأة العربية في الانصياع إلى طروحات الآخر الغربي في النظر إلى قضية المساواة؛ لأن الآخر غير مهتم بقضايا مصيرية لمجتمعاتهن، أضف إلى ذلك عدم رغبتهن في إباحية الغرب بنحو كبير (ولم يعد الغرب المفرط في إباحيته يجذبهن كما جذب جداتهن من قبل؛ لأنهن أصبحن يرين فيه عالماً موبوءاً بالمخدرات والإيدز، وباستغلال النساء) (٤)، ولا تقف درنا قباني عند تبرير منطق الحجاب فحسب، بل تتحدث عن قضايا أخرى لها صلة بموقف الآخر الغربي من قضية الإسلام في الغرب، والمظاهرات الحاشدة التي تدافع عن الإسلام، مؤكدة ردّة الفعل عند الطرفين والإيمان بفكرة التهديد، تهديد فكرة الدين، وتهديد فكرة القمع والسيطرة والظلامية، فعندما يحتشد المسلمون تتكوّن (ردة فعل دفاعية غريزية يمكن تفهمها، غير أنه بالمقابل لا بد للمرء أن يتذكر أن تلك الحشود التي توحى بالتهديد غالباً ما تشعر أنها هي الواقعة تحت التهديد) (٥).

الذات خارج المكان:

يقدم إدوارد سعيد رؤية أخرى في (خارج المكان) عن صراعه مع المكان الذي يمثل هويتين/ ذاتين عن طريق الاسم الذي يشير إلى منطقتين أو مكانين: أحدهما: عربي، والآخر: غربي: (كان يلزمني قرابة خمسين سنة لكي اعتاد على (إدوارد) وأخفف من الحرج الذي يسببه لي هذا الاسم الإنكليزي الأخرق الذي وضع كالنير على عاتق (سعيد) أمس العائلة العربي القحّ) (٦).

١- رسالة إلى الغرب: ٣٤.

٢- أزمة الهويات: ١٩.

٣- رسالة إلى الغرب: ٥١.

٤- م.ن: ٥٨.

٥- م.ن: ٦٣.

٦- خارج المكان، إدوارد سعيد، ت. فواز طرابلسي، دار الآداب، لبنان، ط١، ٢٠٠٠: ٢٥.

وما أنتجه هذا الاسم المركب من هويتين إلى صراع في المشاعر عند السارد، بسبب الاقتران غير المنضبط لهويتين (وخلال سنوات من محاولات المزاجية بين اسمي الإنكليزي الفخم وشريكه العربي، كنت أتجاوز (إدوارد) وأؤكد على سعيد تبعاً للظروف) ^(١)، طبيعة الصراع لذات واحدة بين ذاتين جعلت صورة ممارسة الذات الساردة تخضع لمنطق (بحسب الظروف)، وكأن شكل الهوية وسيرة الذات لا تندمج إلا مع صاحبها الذي يقترب من الهوية.

ويأخذ الصراع في المكان بعداً أكبر عن طريق اللغة، واستخدامها بوصفها طريقة تواصل، ومع هذا تحولت هذه ازدواجية في الاسم إلى خلق ازدواجية في طريقة التلفظ باللغة (فأنا لم أعرف أبداً أية لغة لهجت بها أولاً: أهى العربية أم الإنكليزية، ولا أيّاً منهما هي يقيناً لغتي الأولى، ما أعرفه هو أن اللغتين كانتا موجودتين دوماً في حياتي، الواحدة منهما ترجع صدى الأخرى، وتستطيع كل منهما ادعاء الأولوية المطلقة، من دون أن تكون هي فعلاً اللغة الأولى) ^(٢)، وهذا الكشف في عدم معرفة من تتقدم على من (ما أعرفه هو أن اللغتين كانتا موجودتين في حياتي) يؤجل فكرة الصراع بين هويتين إلى أن يتم إيجاد المسبب الحقيقي الذي أنتج أزمة هوية حقيقية لإدوارد سعيد، بسبب الاختلاط بين لغتين (أنا أعزو مصدر هذا الاضطراب الأول إلى أمي التي أذكر أنها كانت تحدثني بالإنكليزية والعربية)، وهذا يؤشر عمق التوتر بين ثقافتين بسبب الاضطراب في اللغة.

والمفارقة الكبيرة التي يقدمها سعيد في بيان إشكالية المكان وصراع سيرة الهوية، عندما يتم البحث في الوضع القانوني لوالدته التي بلا جواز إلى أن يتم الحصول لها على جواز لبناني هو الآخر مصدر إزعاج وقلق، بسبب الموقف من المواطن اللبناني بعد الحرب الأهلية واتهامه من العالم بالعنف، إذ تتعرض إلى مضايقات جديدة، هذا التنازع على الهوية الذي يمثل المكان والهوية في الوقت ذاته، يدل على الإرادة المسلوقة لذات هي -بالأساس- مسلوقة المكان والذات والهوية (عند وصولنا نيويورك، عاودتنا بإلحاح مسألة الوضع القانوني لأمي التي أصبحت شخصاً بلا جنسية بعد سقوط فلسطين) ^(٣).

الصراع في رسم ذات متزنة ومستقرة في مكان آخر، أفضى إلى أن تكون الذات في بحث عمّن يوافر لها ملامح هوية جديدة، ولأن الأم ترفض الجنسية الأميركية استعاضت عنها باللبنانية التي رافقت الحرب الأهلية اللبنانية فسببت لهم مشكلات جديدة عمقت الإحساس بالضياع، ومع هذا الوضع المتأزم في عدم قبول الأم الإقامة وقبول الجنسية الأميركية، أصيبت بالسرطان وتوفيت في أميركا (توفيت أمي وقد رفضت تأشيرة إقامة قصيرة الأجل، فدفنت في أميركا التي كانت تتحاشاها دوماً وتكنّ لها الكراهية أساساً) ^(٤).

نزاع الذات بين الهوية والمكان والموت، أسس سيرة هوية فاقدة لأية هوية فرعية مقبولة، فلا هي فلسطينية تستطيع العودة إلى أرضها ولا هي لبنانية لها القدرة على دخول أرض محترقة ولا هي أميركية يسمح لها بالإقامة، بين هذه المتناقضات توفيت والدته إدوارد سعيد وتشكلت سيرة هوية متأزمة.

والنقطة الأقرب لتمثيل ظاهرة أزمة الهوية/المكان، ما قامت بوصفه درنا قباني للبيوتات العربية في الغرب، إذ تقول: (وظل المسلمون الذين انتقلوا إلى شقق حديثة يمارسون فيها شعائر دينهم وطقوسه من وضوء، وصلاة، وتستر على النساء، وواظبوا على احترام تقاليد البيوت القديمة) ^(٥).

من هذا المنطلق يمكن عدّ ما يعيشه الإنسان في أماكن، هي بعيدة عن أرضه، ومع ذلك يبقى متمسكاً بكل ما جاء به من تلك الهوية/المكان الأصل من أشياء (الصلاة، وأيام خطبة، وشعائر دينهم) وكأن ممارسة هذه الطقوس والأمور الدينية رغبة في استعادة الذات المسلوقة، إذ كان (لكل مجتمع في التاريخ الإنساني نوع ما

^١ - م.ن: ٢٥.

^٢ - خارج المكان، إدوارد سعيد: ٢٦.

^٣ - م.ن: ١٧٣.

^٤ - م.ن: ١٧٤.

^٥ - رسالة إلى الغرب: ٣٩.

من نظام عائلي (١)، ومع هذه الرغبة كلها في تمثيل الهوية، إلا أنها تمثل تحدياً سوف يخلق نتائج عنصرية وتوقّص الذات عن الآخرين؛ (لأن العنصرية مؤشر على العودة إلى الجماعاتي) (٢).

المتن المجاور لإنجاز سيرة هوية مسلوقة:

من الأساليب التي تفيد كاتب سيرة الهوية؛ الاستعانة بالنصوص المجاورة من أجل تكوين سيرة هوية متكاملة تعبر عن أزمة المرحلة التي يمر بها السارد، ومن هذه النصوص المجاورة الإفادة من المقاطع الإخبارية عن طريق التلفاز أو الإذاعة أو المقالة أو الأخبار المنشورة في جريدة أو المعلومات المتوافرة في بعض المصادر، وهي أساسيات تفيد صاحب السيرة في إنجاز مهمته، وتعتبر هذه الأساليب عن إفادة كاتب السيرة من متن مجاور يخدم القضية التي يرغب في الحديث عنها، ليدافع عن ذات يتم التعرض لها باستمرار وسلبها أيسر امتيازاتها التي تعودت عليها، مع ما يقوم به بعض الأشخاص من طعن مستمر بقيم الإسلام التي تمثل هوية المغترب الذي لا يؤمن البتة بالقضية.

إن الدفاع عن الدين الإسلامي في الغرب يأخذ نمط التعصب، بسبب ارتباط هذا الدين بهوية المهاجر المغترب/ اللاجئ الإنساني والسياسي، ونحن بهذا- نتعرف إلى مفهوم المنفى الإجماعي والاختياري (٣) الذي يجعل المرء يفسر الأشياء في ضوء الأمرين، فإذا ما تمّ التعرض لبعض قواعد الدين الإسلامي، مثلاً الحجاب في فرنسا، أو شخصية الرسول الكريم (ص) في الدنمارك، يحدث ما هو رده أكبر مما لو يصدر من الشرق الإسلامي؛ لأن التعبير عن الإنسان المتأزم يأخذ صورة الحدية؛ لأن الاقتران السببي للهوية بالدين، جعل من الدين هوية كبرى تدافع عن هويته الصغرى، وربما يتحوّل الدين الإسلامي بسبب تنوع الهويات المكانية (عراقي، وسوري، ولبناني) إلى هوية أكبر من المكان الذي جاء منه، لذلك تأخذ صورة الدفاع أكثر مما نتصور حتى وإن كان الشخص علمانياً، وبعيداً عن عادات وتقاليد الطائفة التي جاء منها، ففي دراسة إحصائية عن القارة الأسترالية، تبين أن نسبة المشاركة الفاعلة من المهاجرين الناطقين باللغة الإنجليزية (إنغلو ساكسوني) أكثر من بقية المهاجرين غير الناطقين (٤).

و(في يوميات الحزن العادي) لمحمود درويش، تأخذ سيرة الهوية نمطاً آخر أكثر خطورة عن طريق الاستعانة بمصدر آخر يخدم متن السيرة، إذ يفيد درويش من متن معلوماتي يقدمه كتاب التاريخ لطالب عربي يعيش ضمن الحدود المفترضة لليهود في إسرائيل، وليس له الحق التعليق على ما جاء داخل متن هذا الكتاب، تقول المعلومة:

(جلس تيودور هرتسل وفكر بمصير شعبه المضطهد، أَلَفَ الفكرة الصهيونية التي هي الطريق الوحيد إلى أرض الخلاص الوحيدة، لن يحقق اليهود ذواتهم ولن يقدروا على القيام بتنفيذ الرسالة التاريخية للبعث اليهودي إلا بالعودة إلى وطن الأجداد... إلى فلسطين) (٥).

وهنا يحدث الخلل في تلقي المعلومة بين بيت يصر عليه أن فلسطين عربية، وأن أهلها تم تهجيرهم قسراً، وبين معلم يهودي يقدم له هذه المعلومة وليس له الحق الاعتراض عليها، وهذا يعيدنا إلى المقولة التي تؤكد أن (المكان بالنسبة للمستوطنين والمكتشفين الأوائل بمثابة نص يجب الكتابة عليه قبل تأويله) (٦)، وعلى وفق هذا المنطق، تتأرجح الذات بين هوية مفقودة متمسكة بما لديها، وهوية تفرض وجودها عن طريق الكتاب المدرسي.

١- بنو الإنسان، ب. يتر فاراب: ٢٩٤.

٢- أزمة الهويات: ٢٩٧.

٣- معنى أدب المنفى، فخري صالح، م. الكلمة، ع(١٠)، ٢٠٠٧: ١.

٤- ينظر: إشكالية الهوية والانتماء، علي حمدان، المركز الاستراتيجي العربي للدراسات السياسية: ٣٤.

٥- يوميات الحزن العادي: ٥٣.

٦- الدراما ما بعد الكولونيالية: ٢٠٧.

وتعترض درنا قباني على معلومة ختان المرأة التي يتحدث عنها الغرب، في ما ورد في مقالة (مارينا وارنر)، لتؤكد أن هذا الأمر ليس له علاقة بالإسلام والهوية الإسلامية، وإنما (ممارسة إفريقية لا تمت إلى الإسلام بصلة) ^(١)، ومن هذا نكتشف أن التعرض إلى الإسلام مستمر وحدود الدفاع يتم عن طريق المصدرية والمعلومات التي تتوافر للآخر الذي يفقد هويته فرصة للدفاع. وفي مكان آخر تعرض لما كتبه كونور كروز في الأوبزرفر عن المجتمع الإسلامي (إن المجتمع الإسلامي يبدو مثيلاً للاشمئزاز لأنه فعلاً يثير الاشمئزاز) ^(٢)، وتراكم هذه المعلومات والمصدرية في نقد المجتمع الإسلامي لهوية سارد ينتمي إلى تلك المجتمعات، ليس أمامه سوى استخدام هذه المصدرية ليرد عليها من أجل الدفاع عن سيرة هوية في غير مكانها، وقد أنتج هذا الأمر (هوية مركبة) ^(٣). ومن هذا المنطق جاءت سيرة درنا قباني لتعبر في الفصول الأولى منه عن الهجمات التي تعرض لها الإسلام من سلمان رشدي وغيره، وكان طبيعة الكتاب تسعى إلى ثبات هوية ذوات يسعون إلى إلغائهم في مجتمعات غير مجتمعاتهم.

ويقف إدوارد سعيد على الضد من مقولة مشهورة (ستة ضد واحد) ^(٤)، إشارة إلى الدول العربية الست التي وقفت إلى جانب فلسطين أمام إعلان دولة إسرائيل ١٩٤٨، وليس في هذه المقولة سيرة هوية وطن ضائع (نادراً ما ذكرت فلسطين، والوطن الضائع، ومجدداً، وإلا مرة واحدة خلال عامي الأخير في المدرسة الأمريكية عندما أدركت فجأة، وإثر حوار صاخب عن جو لويس وجيرسي جو والكوت، ومعنى إشارة صديقي البرت كورونل عندما تحدث باحتقار عن (ستة ضد واحد)) ^(٥). إن استحضار المقولة جزء من هزيمة علاقة أصدقاء كانوا قد انتقلوا من مدرسة إلى أخرى، ومع ذلك ظل الشعور بأن اليهود يتعرضون إلى إبادة جزءاً من الفهم العام، من هذا المنطق عبر إدوارد عن خيبته من كل شيء؛ لأن الحياة في المنفى -على حد تعبيره- هو العيش (خارج النظام المعتاد) ^(٦).

خلاصة:

مما تقدم نكشف أن أزمة الهوية التي يعاني منها الكثير من المغتربين، والكثير من الفلسطينيين داخل الأوطان وخارجها، تمثل اللحظة الحقيقية لكتابة سيرة، ربما لا تتوافر لمن هو مبدع داخل وطنه؛ لأنه بعيد عن إشكاليات لم تتعرض لها عائلته، فبقيت إشكالياته من نوع خاص، بخلاف ما قدمته هذه السيرة التي غاب فيها المؤلف عن ذاته ليحلل ويبرر ويحفر في منطقة جديدة بعيدة عنه. أزمة الهوية بما حملته، ابتدأت أولاً من أزمة المكان وإشكالياته السياسية والعرقية، وهذا المكان/ قديمه وحديثه، يوافر للإنسان صراعاً من نوع جديد، نحتاج إلى البحث فيه وفك أسرار.

^١ - رسالة إلى الغرب: ٢٤.

^٢ - رسالة إلى الغرب: ٢١.

^٣ - إشكالية الهوية والانتماء، علي حمدان: ٣٥.

^٤ - خارج المكان: ١٨٤.

^٥ - م.ن: ١٨٤.

^٦ - معنى أدب المنفى، فخرى صالح، م. الكلمة، ع(١٠)، ٢٠٠٧: ٨.

المصادر والمراجع:

١. أدب السيرة الذاتية، د.عبد العزيز شرف، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر، ط١، ١٩٩٢.
٢. أدب السيرة الذاتية في فرنسا، المفاهيم والتصورات، فيليب لوجون، ت.ضحى شيخة، م.الثقافة الأجنبية، العراق، ع(٤)، ١٩٨٤.
٣. الأدب والأنواع الأدبية، مجموعة من الأساتذة، ت.طاهر حجار، دار طلاس، ط١، ١٩٨٥.
٤. أزمة الهويات، تفسير تحول، كلود دوبار، ت.رندة بعث، المكتبة الشرقية، بيروت، ط١، ٢٠٠٨.
٥. أشكال الزمان والمكان في الرواية، باختين، ت.يوسف حلاق، منشورات وزارة الثقافة السورية، ١٩٩٠.
٦. إشكالية الهوية والانتماء، علي حمدان، سلسلة الاستراتيجيون العرب، ج١، المركز الاستراتيجي العربي للدراسات السياسية، ط١، سدني، ٢٠٠٥.
٧. أوجه السيرة، إندريه موروا، ت.ناجي الحديثي، دار الشؤون الثقافية، العراق، ١٩٨٧.
٨. بنو الإنسان، بيتر فارب، ت.زهير الكرمي، عالم المعرفة (٦٧) الكويت، ١٩٨٣.
٩. جماليات المكان، باشلار، ت.غالب هلسا، كتاب الأقلام (١)، وزارة الثقافة والإعلام، دار الحرية للطباعة، ١٩٨٠.
١٠. خارج المكان، إدوارد سعيد، ت.فواز طرابلسي، دار الآداب، لبنان، ط١، ٢٠٠٠.
١١. الدراما ما بعد الكولونيالية، النظرية والممارسة، هيلين جيلبرت، وجوان تومكينز، ت.سامح فكري، مر. سامي خشبة، مركز اللغات والترجمة-أكاديمية الفنون، وزارة الثقافة، مهرجان القاهرة الدولي للمسرح التجريبي (١٥)، مطابع المجلس الأعلى للآثار، ١٩٩٨.
١٢. رسالة إلى الغرب، د.رنا قباني، ت.د.صباح قباني، دار الآداب، ط١، ١٩٩١.
١٣. الرواية التاريخية، لوكاش، ت.صالح جواد كاظم، منشورات وزارة الثقافة والفنون، جمهورية العراق، سلسلة الكتب المترجمة (٤٩)، ١٩٧٨.
١٤. السيميوطيقا والعنونة، جميل حمداوي، م.عالم الفكر، مج(٢٥)، ع(٣)، الكويت، ١٩٩٧.
١٥. شهرزاد ترحل إلى الغرب، فاطمة المرنيسي، ت.فاطمة الزهراء، المركز الثقافي العربي، ط٢، ٢٠٠٥.
١٦. صراع الرؤى، نزاع الهويات في السودان، فرانسيس دينق، ت.عوض حسن، مركز الدراسات الإستراتيجية، القاهرة، ط١، ١٩٩٩.
١٧. العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي، محمد فكري الجزار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨.
١٨. لسان العرب، ابن منظور.
١٩. مدخل إلى السيميوطيقا، مقالات مترجمة ودراسات، بإشراف سيزا قاسم، ونصر حامد أبي زيد، دار إلياس العصرية، القاهرة.
٢٠. المحيط، مجموعة من الأساتذة، تقديم الأستاذ الدكتور محيي الدين صابر، القاهرة - آذار، ١٩٩٣.
٢١. معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة، كامل المهندس، مكتبة لبنان ناشرون، ط٢، ١٩٨٤.
٢٢. معنى أدب المنفى، فخري صالح، م.الكلمة، ع(١٠)، ٢٠٠٧.
٢٣. الهوية الثقافية بين العالمية والعولمة، د.عفيف البهنسي، وزارة الثقافة السورية، الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٠٩.

٢٤. يوميات الحزن العادي، محمود درويش، دار العودة، بيروت، ط٢، ١٩٧٨.